من الشارع

للاستاذ أحمد عبد القادر الصاوى

المواكب تمتد . الجماعات تتشابك. الطبول تدق . الغناء يعلو

وأنا وحيد .. تتراقص فى ذهنه أخيلة قاتمة ، ورأيت أن أمضى إلى الجموع الحافلة أتصيد اللهو والتمة ...

وفى مدى دقيقتين توسطت حقل الملوى . وسافرت بين جوانحى تنهدة طويلة . وسال فى وجدانى شعور بالرضى ..

وسارت بى الخطا فى زقاق غير بعيد ، شاهدت كومة مهملة من الخرق ملقاة على الأرض غافلة عما حولها من الضجيج

ومر الشرطى فركلها ليفحصها . وبلغت دهشتى غايتها ، إذ تجمعت الكومة وتحركت — رويدا . وارتفعت ، وشاهدت هلاهيل داخلها إنسان . أحد أبناء الطريق ممن يفترشون فيها حائرين كاسدين . وسأله

— أين أبوك ؟

— لا أب لى

— وأمك ؟

— لا أم لى

— أين تبيت ؟

— هنا ! !

ونحاه ، وانطلق متكبرا

وتراجع الغلام إلى مكانه . وتراخى ، وشمله نوم عميق . ووقفت حياله . وثورة من العواطف تجتاحنى

وعبست السماء ، وتلبدت السحب ، وأظلت غمامة ، ودمعت ثم برحت . وأسرعت أوقظه ، فلم يسمع لى . صحت فيه

— قم !

— ليس هذا مكان أحد . لن أقوم

— المطر ينهمر !

— لينهمر ! ليست هذه أول مرة

— قم !

— لا شأن لك بى

اختطفته . فانزعج . فطمأنته

— لا بأس عليك

ومشى بطرف ساج ثم تبعنى

وخرجت معه عن دائرة الفوضى . وطلبت منه أن يصحبنى فأطاع ..

وكنت أسكن وحدى . فأعددت له فرشا . ونام كما تنام الهرة مستكينة مستسلمة

وأصبح الصباح واكتشفت أنه أليف وديع . وودعته وغدوت إلى عملى

وعدت ظهرا . وتلألأت فرحة بين جنبى .. الحجرات تبتسم ، والأثاث يشرق ، وزجاج النوافذ يضئ . كان الأثاث قد رتب ترتيبا ساذجا ، أقرب إلى التنسيق والنظام

وفركت عينى . وعادتا تتصفحان مرة ثانية قطع الدار . لقد أصبحت قشيبة

وسرت البهجة إلى قلبى باردة ناعمة .. سأدخل حياة جديدة ، جميع نواحيها هدوء واستقرار

وواجهته والضحك يتزاحم على فمه . واستحالت الضحكات كلمات بليغة راقية

ومدحت تصرفه ، وسطعت على فمه ابتسامة ردا على كلمات الإطراء التى امطرته بها

وتناولنا غداءنا وخرجت إلى بعض صحبى . وعمدت إليه عند أوبتى ملابس من النوع الرخيص . وتهلل وذهب يستحم

ألف الحياة التى تحيطه . وعامل أشخاصا من الحى تربطنا بهم الحاجة . وأثنوا عليه

وأرسلته إلى السكواء . وعاد عابسا . وأظهر أكثر من العبوس ، حين قدمت إليه أثواب العامل ليؤديها إليه فقال :

— هذا كثير

فهززت كتفى وقلت :

— وما الحيلة ؟

— أستطيع أن أحتال لك

وكيف ؟

— اشتر لى مكواة وسترى

— لا خبرة لك

— خبرتها هناك

— تهزل ؟

— أجد

وأعجبت كثيرا حين وجدت الأقمصة والبدل، كأنما صقلتها يد الكواء

ستون قرشا أو تزيد استقرت فى جيبى آخر كل شهر. وعالج الغسيل ، ورتق الجوارب ، وطهو الطعام ونجح . وبلغ فى نجاحه مدى بعيدا

ولقيته مرة حزينا فاستفسرت فقال :

— احسب معى !

أربعة قروش وملليان صابون . وقرش وخمسة مليمات خبز . وقرش وثلاثة مليمات شاى ، وقرش وسبعة مليمات زهرة وملح ... كم مجموعها ؟

— ثمانية قروش وسبعة مليمات

— فإذا كان معى عشرة قروش ، فكم يتبقى ؟

— قرش وثلاثة مليمات

— معى قرش

— لا عليك !

وتلعثم واكفهر

— سأتعلم الحساب

— من يعلمك ؟

— أنت

وتبدو الوثبة الثانية ، وأجد أن أحب شئ لدى حين أجلس لألقنه، وتشربت الاسفنجة الجافة ما ألقيته إليها . وعت ووعت ، ولم تتشبع ولم تمتلىء

وفى غضون عام أصبح فى مستوى طالب الشهادة الابتدائية بكتب بطلاقة وخمة أصيلتين

وضبط الحساب وضغطه ، فلم يفلت منه مليم ، وتطلعت إلى الملكث فى بيتى . وارتاح صديقى الصغير إلى ، واتخذنى أخا ومرشدا . واستوى الحول ، ووجدت يدى تتحكم فى ثلاثين جنيها . مبلغ ضخم ! يا لله !

وازددت حدبا عليه، وازداد كلفا بى ، والأيام تمدو وتتطاق وفتاى ينمو نموا مطردا ، ووجهه يتدفق جمالا ، وقوامه يتناسق ويرشق . ولم ألتفت إليه

وحرك فضولى أن صوته كان يرق ، وخشونته كانت ترهف ، والأنوثة كانت تطل من أعضائه وملامحه . ويلاه ! وأخذت المفاجأة طريقها فى سرعة

ومضى شهر . وفى خلال الشهر الذى يليه كان يملو صدره . وفى الشهر الثالث برز له صدر فتاة ؛ وهو إذ ذاك فى الرابعة عشرة ولكنه يحث خطاه إلى النضوج الباكر العاجل . وينتقل من حال إلى نقيضه !

وأثار فى كثرة ترددها على الحلاق ليقص لها كالفتيان . وأثارنى أكثر إصرارها على ما هى عليه ، وتمردها على أنوثتها

وتتساقط الأيام ، وتفر الأشهر ، فإذا أنثى كاملة تخرج من ثناياها. ويدور الزمن فيصقلها دورانه ويهذبها . ولا يزال الصقل والتهذيب حتى يخلص إلى تمثال تتوهج الأنوثة الكامنة فيه . ويكاد الحسن يضطرم على صفحة الوجه الناصع الصغير

يا رحمة الله ساعديني !

واحتاجت إلى ملابس ، فانتقيت لها مجموعة منمقة . إحدى التشكيلات التى تسر الفتيات وتبهجهن

وجاءت فرحة لتفضها . وحدقت فى الألوان الزاهية عينها وفقدت مقاومتها ، وانطلقت إلى الحجرة الأخرى . . تطعن بأظافرها الخشايا وتولول . وذهبت إليها وما دريت أن الكتمان الطويل الذى لفت نفسها به، سيهتك سريعا . ولكنها أنثى !

ومرت الليالى . وخضعت لرغبة الطبيعة ، فظلت الساعات أمام المرآة تتعطر وتتزين . لمن ؟

وكرهت مسكنى ، فقضيت أكثر وقتى خارجه . إن وجودى فيه كان إحدى أمانى الشيطان

وتنتظرني بقلب واجف . . تتلقاني بالحساب العسير . وأتحمل الأسباب فلا تصدق . وتولي وهي تبكي . وتظرفت وتلطفت . واقبلت .. تقول :

— كرهتني !

— أبدا

— ليتني فتى !

وتضحك خلال دموعها وتستأنف

— كنت أحببتني

— أحببتك في حالتيك

وتسوق بعض طرائفها في أسلوب هين رفيق

وعدت إلى المنزل يوما عقب عمل شاق. فوجدتها ارتدت ثوبي واحتذت حذائي ، وعقصت شعرها تحت طربوشي . واختطت شاربا ، وواجهتني . ولم أتمالك أن تضاحكت. ورددت ضحكاتها ترف على وجهها ، فتصبغه لونا زاهيا .. لون المرح والشباب

— أحببتني الساعة !

— وكل ساعة

— ابق معي !

— أبقى !

— أجل

— أنت في حجرة ، وأنا في حجرة

وتعبس بعض الوقت

— ستكون أبعد منك خاطرا

— هذا شرطي — وتهمس

— خففه !

— قد خففت !

وتأفف . وتهز رأسها

— رضيت

وتعبث بأذني وأصابعي وتهمس

— ألا زلت على قسوتك ؟

وأضحك بعد العبوس

وكان دلالها الفطري ، وحركاتها الغريزية ، وسهولتها الطلقة، أمورا جديدة علي .فن حولي كلهم قد أخفتهم الصناعة خلف قناع كثيف

وأنا أقدس الحياة لا كلفة فيها

وانتهى الأمر بأن أحببتها !

وخرجنا معا إلى عرض الطريق

وعلت الدهشة وجوه القوم . وتقولت جمهرتهم . ووشاعت الشائعات . ولم يكن هناك بد من قطع ألسنتها . . سأعقد عليها حالا

وأسرعت إليها برغبتي . واستخفها الطرب . وطارت إلى المرآة . وأقبلت ، وكل جارحة في وجهها تبتسم

— أتراني لك أهلا ؟

واحتواها ذراعاي

واستدعيت المأذون . فأقبل وتساءل

— أين العروس ؟

وأقبلت ترتدي ثوبا بسيطا . وخيل إلي وهي في بساطتها أنها أبهى فتاة . وسبح قلبي في بحيرة من السرور

— كم سنك ؟

— لا أعرف !

ودارت بي الدنيا

— ما اسمك ؟

وتعثرت كلماتها . ووقف قلم الشيخ

— أين شهادة ميلادك ؟

— ماذا تقول ؟ لا أفهم !

والتفت إلى الشيخ وقال :

— لا تعرف اسمها ، ولا تعرف سنها . أمر خطير . .

وقام مهرولا لا يلوي على شيء

وظل التمثال الرشيق مبهوتا، يرى فتتسع عيناه، وتتهدل شفتاه ، ويحول لونه ، ويتصلب وجهه

ودنوت منها لأواسيها، لاتنبه. وأتوسل إليها، فلا تتكلم.. لا تتكلم مطلقا

وانحدرت إلى صدري نقمة شديدة على نفسي . فلو أحسنت تصرفي قليلا لتم لي سعادة الروح والجسد . وقد أنشأت بجهلي فراقا هائلا بيني وبين من أحب !

وسارت الأمور سيرا كسيحا

وأخذت الفتاة تذبل وتذوى ، والفتنة تخبو وتنطفىء .

وأحزان الملاك الجميل تتجمع عليه فتثقله . ويهبط قليلا قليلا . يقترب جدا من الأرض

وقرأت فى أحزانها كالبنفسجة الفانية ، بيد أنها فقدت الإغراء والغواية ، لا الشذا ولا العطر

وأنا بشر ! ولى عين ترى ، وأنف تشم

وحدثتنى نفسى بها ، وتجلدت ، ولكن رغبات الجسد تكتسحنى ، مرة أغلبها ، ومرارا لا أستطيع

وعمدت فى إباء وشمخت فى كبرياء

وضقت بنفسى وبها

واهتديت أخيرا إلى حل ، دعوت الطبيب ليقدرسنها ثم سنستوفى الشكل فيما بعد ليتم قرانى بها

وعدت معه إلى المنزل

وطرقت غرفتها ، ولم أنتظر الإذن ودخلت

رباه !

ليست هناك . وبحثت وتقصيت ولا جدوى

وأحسست أن صدرى لا يستطيع أن يحتفظ بقلبى ، فينهاوى ، وصرخت والألم يتلقفنى ، والأسنة المسمومة تراشقنى

وتأكدت أننى فقدت فتاة لها مميزات لن تتوفر فى سواها

وهبطت على أحداث مصيبة . وسجل قلبى فترات دثرتها ملاءة سوداء . واشتعل الزمان حولى . وتطايرت الدقائق تتناثر كالشرر

وكان كل ما فى المنزل يتسم بطابعها ، فيوقظ فى أعماق أحداثا تومض وتبتسم ثم تتلاشى : كيف أنسى ؟

وهجرت المنزل إلى غيره ولكن ذكراها كانت تلاحقنى . إليها وتمايلت

وما زال الزمن يسير بها حتى بعدت .. واختفت وراء الزمان . وما زالت توغل بين طيالته حتى ذابت فيه . وانتهى الحلم وصحوت !

وتتابعت السنوات

• • •

وفى ليلة ذهبت إلى المسرح لقضاء السهرة . واحتشدت حول واجهته الأضواء . وأرسلت عيونى تقرأن الصور الموزعة على الجدران ، وبينما كنت أقرأ استيقظت على صوت يستجدى . واستدرت رأيت فتاة رثة تستعطفنى

وشعرت أن تماسا خفيا يتصل بين الفتاة وذاكرتى فحدقت فيها . وما برحت أزيل أكوام الماضى حتى بدت لى فى أقصى الذاكرة صورة واضحة جلية .. بدت لى فى قرارتها صورة وديعة مزينة

تلك ضالتى !

وفوجئت الفتاة . وهمت بالهرب . وأسرعت إليها .. وقبضت بيدى على ساعدها . فنزعته بقحة ورعونة وقالت

— ماذا تريد ؟

— أريدك . بحثت كثيرا عنك

— الفارق بيننا كبير

— متقارب

— بل كبير

— تعالى . لا حساب لهذا عندى

— سلبت ما ترجوه منى !

وبدت تشنجات وحشية على شفتيها . وأخذت تتقافز وتتفرج ، فتكتسى هيئة ذئبة ضارية

— دعنى . فأنا نشأت هنا . وسأبقى هنا !

وتراخت يدى . وفجأة نزعت ساعدها منى . وشردت

وانطلقت عيناى وراءها تتبعانها . . شاهدت بقايا حى ، وهى تتأرجح فى الظلام ، وتمضى طائشة بلا وجهة ، ثم تحول وتتضاءل ثم تختفى

وكان درسا علمتنيه فتاة من الشارع . وكانت عظة ، وكم عظات ملقاة على جانبيه !

سر هناك وتأمل .. ستراها مجسدة أينما سلكت ، فى الأزقة والمنعطفات . . فى الطريق العام والميادين . فى كل مكان

أحمد عبد الغفار الصاوى